مجلة المجمع العلمي العربي

(دمشق) كانون الاول سنة ١٩٢٦م الموافق جمادى الاولى والآخرة سنة ١٣٤٥ هـ

العربية أم اللغات السامية

قسمت لغات الناس قاطبةً الى قسمين أصليين : السامية واليافثية . والذي حمل علماء اللسان على جعلها أصليين اختلاف صور المواد فيهما ، فان السامية موادها ثلاثية غالباً ، ومواد اليافثية ثنائية على الأغلب ، والبحث عن سبب هذه الخصوصية خارج عن موضوعي لكن ينبغي ان أذكر ههنا شيئاً من خصوصيات السامية وغرائبها قبل ان أرد على المقصود . فمنها ان فيها حروفاً يعسر التلفظ بها على غير السامبين مثل (ع ق ص) وغيرها ، فانها لا توجد في اليافثية ، ولا يقدر على التلفظ بها غير اهلها الا بكلفة ، ويقدر على تلفظها وتلفظ غيرها من حروف الحلق رضائع السامبين فضلاً عن غيرهم .

ومنها ان صيغ الأفعال والضمائر للمذكر وغيرها للمؤنث في السامية ، ولا كذلك في اليافثية بل يستعمل الفعل الواحد والضمير الواحد للمذكر والمؤنث كليهما .

ومنها ان الضمائر قد تنفصل من الاسماء والافعال والحروف وقد تنفصل في السامية ، ولكل استعمال موضع يخص هو فيه فلا يجوز الانفصال في مقام الاتصال و بالعكس ، واما اليافثية ففيها الانفصال فقط ولا تتصل الضمائر بالأقسام الثلاثة في شيء من الأحوال .

* * *

لا يخفى انه يندرج تحت اليافثية كثير من اللغات كالهندية والفارسية والألسنة الاوربية وانه يدخل تحت السامية ايضاً شيء كثير كالعربية والعبرانية والسريانية والكلدانية والسامرية والحبشية والنبطية وغيرها . ولا اختلاف بين احد من علماء اللسان في هذا الامر ، فهم جميعاً يقولون بان هذه هي اليافثية وتلك هي السامية نعم الاختلاف في أيتهما اصل للاخرى ثم ان ايّة اللغات السامية أم للبواقي . فاما الاختلاف الاول فسأتكلم فيه ان شاء الله عن قريب ، واما الثاني فهو موضوعي الآن .

* * *

هل نبعت السامية من لغة أخرى بادت ام هي واحدة منها أصل للآخر ؟ هذه هي المسألة وقد قيل بالشق الاول لكنه ضعيف ، فانه لا دليل يدل عليه سوى الاحتمال ، وقيل على تقدير الشق الثاني ان العبرانية أم للبواقي وهو احد المسالك فيه وثانيها ان السريانية اصل وثالثها ان الام هي العربية وانا ممن سلك هذا المسلك الثالث ، وتمذهب بهذا المذهب الآخر ، فأذكر دلائله ولست أحتاج الى ذكر دلائل المذاهب الأُخَر فانها تبطل اذا ثبت مسلكي بمنع الجمع وقصاراي ان أدفع الشكوك الواردة على مذهبي .

* * *

فالدليل الاول لهذا المسلك انه اتفق مهرة اللغات بانه قد ضاع اصول كثير من كلمات العبرانية والسريانية ولا يدري حقيقتها فيهما لكن توجد اصولها في العربية ، فوجود الفروع في العبرانية والسريانية ووجود الاصول في العربية يدل ظاهراً انهما اخذتا هذه الكلمات من العربية ولما لم توجد اصولها فيهما قال أهل الظاهر بانها مجهولة الحقيقة والا فلا جهل في الواقع بالنظر الى العربية .

والدليل الثاني انه يوجد في العبرانية والسريانية كلمات سقط بعض أجزائها ، فهي ساقطة الاجزاء في تينك اللغتين ، وهذه الاجزاء الساقطة توجد في العربية وهي مثل انت وال النعربفي فالنون في انت واللام في ال لا توجدان في العبرانية والسريانية ، وهما موجودتان في العربية فلا تخلو اما انها نقلت من العربية الى تينك اللغتين باسقاط بعض الاجزاء ، واما انها نقلت منهما الى العربية بازدياد بعض الحروف

والقياس يرجح الاحتمال الاول فان القاعدة الاكثرية بل الكلية ان كلة اذا نقلت من لسان الى لسان آخر فان هذا النقل دليل كثرة استعماله ، وتلك تقتضي الخفة وهي لا تكون الا باسقاط بعض الاجزاء ، فالكلمة المنقولة تقبل السقوط وترى ناقصة في مقابلة المنقول عنها ، فوجود مثل هذه الكلمات ناقصة فيهما وتامة في العربية دليل على كونها فرعاً والعربية اصلا ·

الدليل الثالث حرف الضاد لا يوجد الا في العربية ، واما الصاد والعين فتوجدان في العبرانية والسريانية ايضاً ، وثمرة هذا الاختلاف ان الكلمات العربية التي فيها (ض) توجد في العبرانية بالصاد وفي السريانية بالعين مثل أرض وقبض وهما في العبرانية ارص وقبص وفي السريانية أرع وقبع ·

فلا يسلم العقل السليم ان ارضا أخذت من أرص او أرع فانه يأبى كل الإباء ان يبدل الصاد اوالعين من الضاد مع وجودهما في العربية ، نايا لا نعرف امراً أحوج اهل العرب الى تبديل الحرف ، فلا شك ان امثال هذه الكلمة عربية ونقلت منها الى العبرانية والسريانية واذ لم تكن الضاد عند العبرانيين والسريانيين لكونهم فقدوها للاسباب الفطرية من اختلاف الأزمنة والأمكنة وغيرها ، احتاجوا الى التبديل فبدلها احدهما من الصاد والآخر من العين — وليس هذا الامر مقصوراً على الضاد بل لا توجد الثاء والذال ايضاً في العبرانية والسريانية ، والكلمات العربية التي فيها احد هذين الحرفين توجد فيهما مبدلة من الحروف الأخر ، فالكلمات التي فيها الثاء توجد في العبرانية بالشين وفي السريانية بالناء ، كالثلج في العبرانية شلج وفي السريانية تلج ، والتي فيها الذال توجد في العبرانية بالدال وفي السريانية بالزاي ، كالذكر في العبرانية دكر وفي السريانية زكر ، و بالجملة فقد جاءت الوف من الكلمات في هاتين اللغتين من العربية بحيث لا يمكن ان يشك فيها انها أخذت في العربية منها ، فانه لم يكن لاهل العرب احتياج قط الى تبديل الحرف · هذا الدليل من أجلى البديهيات فلا يستطاع إباؤه ولو لم يكن معه شيء آخر لكفى ·

الدليل الرابع : اتفق المؤرخون ان سفر أيوب اول كتاب دُوّن في العبرانية وفيه من الكلمات العربية ما لا يعد ولا يحصى · وهذا يدل على ان العبرانية لم تكن

لغة مستقلة في سالف الزمان وانما اللغة المستقلة كانت هي العربية فجعلت تتغير في قبيلة العبرانيين للأسباب الفطرية حتى حصلت صورة مستقلة مسماة بالعبرانية ، وحين دُوّن سفر ايوب لم تكن العبرانية انفصلت عن العربية بالدرجة التي انفصلت عنها فيما بعد .

* * *

ولنتوجه الآن الى الاعتراضات التي ترد على هذا الرأي :

فالشبهة الاولى ان ابتداء اهل العرب من قحطان او يقطان وهو ابن عابر الذي هو ابو العبرانيين فكيف تكون العربية متقدمة عن العبرانية ومأخذاً لها .

ولا حقيقة لهذا الاعتراض في الواقع فان غاية ما في الباب ان ابتداء هذه التسمية من قحطان ولم يكن هذا الاسم قبله ، لكن لا نزاع في قدامة اسم العربة بل في ان اللغة التي تسمى الآن بالعربية هل هي أقدم من اللغات السامية الأخرى وأمٌّ لها ؟ وقد مضى قولنا في اثبات أُميتها ، فلا ضير في حداثة هذا الاسم فنقول بناءً على البراهين المذكورة ان لغة عابر التي كان أجداده يتكلمون بها سارت بعينها الى قبيلة القحطانيين فسميت بالعربية ، اما القبائل الاخرى كالتي سميت فيما بعد بالعبرانيين والسريانيين فانها لما انفصلت جعلت تبعد عن لغة جدها ، فاختلفت لغاتها باقتضاء القوانين الفطرية من اختلاف الأزمنة والأمكنة والماء والهواء وغيرها . واما لغة الذين سموا العرب فانهم لم يتركوا لغة جدهم ولم يزالوا يتكلمون بها على حالها ولا أقول ان لغتهم لم تقبل تغيراً اصلاً اذ لاشك ان التغير الذي هو مقتضى الاسباب الفطرية حصل فيها ايضاً لكنه لم يكن بحيث تتغير لغتهم رأساً بل انه كان كما يكون للغة واحدة في أعصار مختلفة ولا يطلق عليها لاجله اسم آخر فيتحقق ان اللغة الاصلية هي التي تسمى العربية وان لم يكن الاسم قديماً واصلياً . واما امر تقدم جد العبرانيين على جد العربيين فهو ليس مما ينبغي ان يلتفت اليه . فانه ان كان تقدم الجد سبباً لتقدم اللسان لزم ان تكون الكلدانية أقدم من العبرانية وأصلاً لها ، لان جد الكلدانيين أثور ابن ابن سام بلاواسطة وجد العبرانيين ابن ابن سام فلتكن العبرانية على هذا مأخوذة من الكلدانية ولم يقل به احد .

الشبهة الثانية : لم تكتب العربية ولم نقرأ قبل المئة السادسة من المسيح وسبقتها العبرانية والسريانية في هذين الوصفين من أقدم الزمان .

لا يخفى ان هذه الشبهة واهية جداً فان كتابة لغة وقراءتها لا ترادف وجودها فيحكم بوجودها قبل الاتصاف بهما لنسلم ان العربية متأخرة عن العبرانية والسريانية فيهما بل هي متأخرة في التأثر عن جميع آثار التمدن لكن ليس معنى هذا التأخر انها حصلت في الوجود بعدهما . والحق ان العلة الخاصة التي سلمت بها العربية من التغيرات وبقيت على الحالة التي تركها عليها المورث هي ان حملتها قوم من اهل البدو الذين كانوا في غاية البعد عن التمدن وعلى خلافها العبرانية والسريانية فانهما اخذتا تتغيران يوماً فيوماً لان الأمم الحاملة لهما كانت متمدنة ولم يكن لها بد من التغير فان كثرة استعمال الكلمات اللازمة للتمدن صارت سبباً لاسقاط اجزاء الكلمات وغيرت صورها فجعلتا تختلفان شيئاً فشيئاً عن اللغة الاصلية حتى صارتا مستقلتين مختلفتين كل الاختلاف ولم يمس اللغة الاصلية العربية شيء من هذه الامور فسلمت وبقيت على حالها .

عليكرة (الهند) : السيد محمد بدر الدين العلوي